الفضاء والفضاء الذهني في القرآن الكريم

رضوان الفضي
المغرب

مقدمة :

فإنه لا سبيل إلى النهوض بهذه اللغة المباركة؛ لغة القرآن إلا بنقلها من قاعات الدرس النظري إلى واقع تطبيقي، تمتزج فيه العربية بالنظريات الحديثة، وبأنشطتها الواقعية؛ ومحاولة غربلة التراث الإنساني ونفض الغبار عنه واستثماره حتى يغدو وسيلة فاعلة ومؤثرة، في عصر يشهد واقعه ثورة هائلة في جميع المجالات.

فقد حبانا الله بلغة من أعرق اللغات منشأ، وأعزها جانبا، وأغزرها مادة، وأفصحها بيانا، وأعذبها جرسا، وأبلغها عبارة، لابد أن يكون للباحث اليوم يد طولى في السعي نحو اعادة السيادة الفكرية والعلمية وأن تعاد قراءة التراث التفسيري قراءة جديدة تفتح آفاق متنوعة.

ولا غرو أن تستحدث نظريات معرفية لها أصول وقواعد محاولة اعادة إنتاج، فكري مبني على منطق معرفي اساسه اللغة والذهن.

ضمن هذا الاطار الواسع نظر إلى الاستعارة بوصفها ظاهرة ذهنية تلعب دورا مركزيا في المعرفة عند الكائن البشري، وأعيد اكتشافها من جديد لتشغل مجالا هاما من مجالات البحث بإيلائها عناية خاصة ضمنها.

فكان هناك اهتمام خاص بطبيعتها في علاقتها بالذهن والمعرفة والفضاء، بشكل عام، وفي علاقتها بالإنتاجات البشرية في مجال العلوم الإنسانية بوصفها تحققات تتمظهر عنها بطريقة ما.

ولأن النظريات تبنى على أنقاض الأخرى، فإننا سنحاول أن نسلط الضوء على التأسيس النظري لهذه الأفكار المستجدة وتطبيقها على دراسة الاستعارات الفضائية بوصفها ظاهرة ذهنية يمكن أن تتمظهر لغويا وبلاغيا في خطابات متنوعة.

هذا التمظهر البلاغي يدفع الباحث إلى طرح التساؤل عن الكيفية التي تعاملت بها المقاربة المعرفية مع النصوص والخطابات والأنماط الكلامية والتي اخترنا منها الاستعارات القرآنية الفضائية واشتغالها داخل الحقل القرآني المعجز بوصفه خطابا ثريا من حيث تعدد انماطه البلاغية، ويتصف المتن القرآني على وجه خاص بطابع القداسة، مما يتحرز معه حين النظر في معرفيته والمامه بالفضاءات الاستعارية وتشكلاتها المتنوعة وتضمينها بما يناسب التلقي الذهني البشري وتحليله للخطاب.

1- الفضاء لغة واصطلاحا :

- **الفضاء لغة :**

فضا: الفضاء: المكان الواسع من الأرض، والفعل فضا يفضو فضوا فهو فاض؛ قال رؤبة:

أفرخ فيض بيضها المنقاض، ... عنكم، كراما بالمقام الفاضي

وقد فضا المكان وأفضى إذا اتسع.

وأفضى فلان إلى فلان أي وصل إليه، وأصله أنه صار في فرجته وفضائه وحيزه؛ قال ثعلب بن عبيد يصف نحلا:

شتت كثة الأوبار لا القر تتقي، ... ولا الذئب تخشى، وهي بالبلد المفضي

والإفضاء في الحقيقة الانتهاء؛ ومنه قوله تعالى: " وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض"؛ أي انتهى وأوى، عداه بإلى لأن فيه معنى وصل وألقى ثوبه فضا: لم يودعه...

والفضاء: الخالي الفارغ الواسع من الأرض.

والفضاء: الساحة وما اتسع من الأرض. يقال: أفضيت إذا خرجت إلى الفضاء. وقال أبو الهيثم في قول زهير:

ومن يوف لا يذمم، ومن يفض قلبه ... إلى مطمئن البر لا يتجمجم

أي من يصر قلبه إلى فضاء من البر ليس دونه ستر لم يشتبه أمره عليه فيتجمجم أي يتردد فيه.

والفضى، مقصور: الشيء المختلط، تقول: طعام فضى أي فوضى مختلط. شمر: الفضاء ما استوى من الأرض واتسع، قال: والصحراء فضاء[1].

الفضاء اصطلاحا :

يشهد الإنسان في حياته العديد من المسارات الفضائية الفيزيائية، ويمارسها في الوقت نفسه كالانتقال من مكان إلى آخر، ولكوننا نستعمل الاستعارات بكثرة في حياتنا اليومية، كان للمسارات الاستعارية نصيبا بارزا من استعمالاتنا، حيث يتم بناء المسار الاستعاري عن طريق ما يسمى بالإسقاط التصوري (Conceptual projection)"[2]. إن من أهم خصائص اللغات الطبيعية إحالتها على المسارات نظرا للترابط القائم بين التصنيف الذي تقيمه مقولة المسارات في تصورها للفضاء[3](Space)، "والمسار(Path) هو الموضوع الذي يتحرك عبره موضوع ما[4]، وهو "بنية مكونة من عدة عناصر تتفاعل فيما بينها لتفعيل وظيفة المسار في بنية الفضاء العامة"[5]؛ حيث تسمى البنية الكلية للمسار بخطاطة مصدر – مسار – هدف، فكل مسار له مصدر انطلاق محدد سواء ظهرت هذه النقطة على مستوى التركيب أو لم تظهر، لأن تحقيق هذه النقطة تكون على المستوى التصوري حاضرة، وكل المسارات لها أهداف معينة، سواء كانت أهدافا محدودة أم غير محدودة، ويتضمن المسار مجموعة من النقط الرابطة بين المصدر والهدف، والذات تعمل على قطع جميع النقط الموجودة على طول المسار والتي تسمى بالمسلك، وينبغي أن يكون لأي مسار اتجاه معين فالمسار يربط النقطة "أ" بالنقطة "ب"، وليس ضروريا أن يكون الاتجاه في مسار واحد، ولكن الإنسان له هدف في قطعه للمسارات، لذلك يميل إلى تحديد الاتجاه، فالإنسان يتحرك عادة على مدى المسار من النقطة "أ" باتجاه النقطة "ب"[6].

1-1 نظرات في التصورات الفضائية نماذج مختارة:

1-2 التصور الفضائي الحسي عند ابن عطية سميائية الحجر أنموذجا :

العلامة هي في المقام الأول أداة رمزية موجهة لتنظيم تجربة فعلية لا أفق لها خارج اللغة. إنها دال يحيل على مدلول في انفصال عما تقوم اللغة بتمثيله. أو هو ماثول مرتبط بموضوع استنادا إلى صيغة رمزية هي ما يجعل الإحالة قابلة للاستمرار في الذاكرة بعيدا عن قاعدة التمثيل المباشر. هي صورة لما يمكن أن يدركه المتلقي، بل تعيد صياغته ضمن سيرورات الرمز.

يتحدد دور العلامة في تلخيص العين مما يشدها إلى أفق محاصر بأشياء وكائنات وظواهر لكي يفتح أمامها أفقالمعان تنتشر في كل الاتجاهات وذلك هو المبدأ الذي يؤكد بورس حين يعتبر العلامة شيئا تفيد معرفته معرفة شيء آخر[7].

وعلى هذا الأساس، لن يكون خلاصنا في العودة إلى ما يمكن أن تكشف عنه الوقائع من حقائق، تستقر عليها العين، بل مصدره قدرتنا على الإمساك بالتعدد فيها استنادا إلى ما تقوله اللغة عنها. فالمعنى موجود في اللغة لا خارجها، فهي نسق يوضح نفسه بنفسه بتعبير إيكو[8]

فالنصوص يمكن أن تسلم إلى قارئها استنادا، إلى الطبيعة اللغة وحدها، فالمعاني ليست مرئية من خلال العلاقات الموصوفة بشكل مباشر في النص، إذ لا وجود لوحدة من وحدات اللسان يمكن أن تشمل على طاقة تعيينية خالصة، ذلك أن جزءا كبيرا من دلالاتها هو من المضاف الإيحائي[9].

ومن هذا المنطلق الذي وضحه سعيد بن كراد، واعتمادا على المنهج السميائي الذي يختص بعلم العلامات المنفتح على الدلالات والفضاءات داخل بياضات النص وفراغاته، وهذا ما يوضحه هذا المثال ويوضح أن العنصر السميائي العلاماتي والرمزي الذي يعتمد على لغة النص ويخلق أفق التأويل.

قال تعالى: ﴿* وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۖ﴾ [10]، قال ابن عطية: "وذكر أنهم لم يكونوا يحملون الحجر لكنهم كانوا يجدونه في كل مرحلة في منزلته من المرحلة الأولى، وهذا أعظم في الآية، ولا خلاف أنه كان حجرا منفصلا مربعا تطرد من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى صلى الله عليه وسلم، وإذا استغنوا عن الماء ورحلوا جفت العيون، "[11]. فقول ابن عطية أنه لا خلاف دليل على أن كلامه بمثابة مسلمة، فوصفه للحجر بتلك الدقة وذلك الشكل الهندسي المربع، المقسم إلى أربع جهات كل جهة تتفجر منها ثلاث عيون ولم يرد هذا في خبر معزز إلا أن استعانته بأمرين خولت له مثل هذا التأويل أولا استعانته بلغة النص والصيغة العددية (اثنتا عشر عينا)و استعانته بمبدأ التخييل مع استحضاره السياق التارخي والثقافي المستبطن عن خصائص هؤلاء القوم مع الاستعانة بالمنطق الرياضي الحسابي والهندسي فخلص إلى هذا الشكل وهذا التقسيم فمنطقه الرياضي نفى أن يكون الحجر دائريا كتلة واحدة تنفجر منه العيون دفعة واحدة من مكان واحد يجعلها تختلط كأنها عين واحدة، ويخلق نوعا من الازدحام وعدم التنظيم في حال استسقاء القوم مع استحضار كثرتهم، استحضار السياق القرآني أنهم كانوا اثنتا عشرة سبطا، كل قائد سبط له عين يسقي بها قومه استحضارا لطبيعة القوم و كثرة سؤالهم، وعلم أنه سيكون بينهم شقاق وقتال على تلك العيون وغيرها من المؤشرات اللغوية، التي استحضرها حين تأويله للعلامة ووصفه للفضاء الحسي أو العنصر الحسي بالعناصر وسياقات من داخل اللغة وخارجها.

ويتخذ فضاء الحجر حسب تصور الذهني المعرفي لابن عطية الشكل الهندسي التالي:

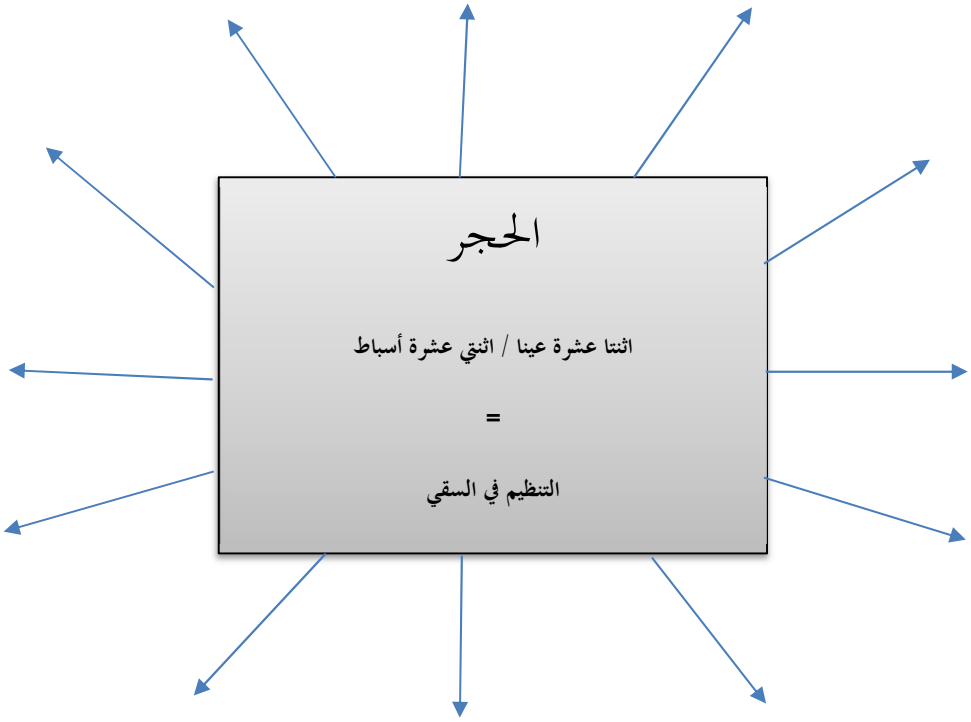

3-1 استعارة العورة في القرآن و الفضاءات الموسعة زمان /مكان/ جسد:

﴿وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ١٣﴾[12]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ... ٥٨﴾[13]

﴿... أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ...﴾[14]

العورة في اللغة :

ع ور: (العورة) سوءة الإنسان وكل ما يستحيا منه والجمع (عورات) بالتسكين. وقرأ بعضهم: «عورات النساء» بفتح الواو. ورجل (أعور) بين (العور) . وبابه طرب وجمعه (عوران) والاسم (العورة) ساكنا. و (عارت) العين تعار و (عورت) أيضا بكسر الواو. و (عرت) عينه أعورها و (أعورتها) أيضا و (عورتها) (تعويرا) .

و (العوار) بالفتح العيب. و (العارية) بالتشديد كأنها منسوبة إلى العار. لأن طلبها عار وعيب. و (العارة) أيضا العارية وهم (يتعورون) العواري بينهم (تعورا) .

و (استعاره) ثوبا (فأعاره) إياه. و (عاور) المكاييل لغة في (عايرها) .

و (اعتوروا) الشيء تداولوه فيما بينهم وكذا (تعوروه) (تعورا) و (تعاوروه)[15]

مفهوم العورات في القرآن الكريم زمان/مكان/جسد :

العورة –أ: ..إن بيوتنا عورة أي معورة أي بيوتنا مما يلي العدو ونحن نسرق منها فأعلم الله أن قصدهم الهرب. قال: ومن قرأها عوْرة، فمعناها ذات عورة. إن يريدون إلا فرارا؛ المعنى: ما يريدون تحرزا من سرق ولكن يريدون الفرار عن نصرة النبي، صلى الله عليه وسلم، وقد قيل: إن بيوتنا عورة أي ليست بحريزة ... قال الأزهري: العورة في الثغور وفي الحروب خلل يتخوف منه القتل. وقال الجوهري: العورة كل خلل يتخوف منه من ثغر أو حرب.

العورة –ب: الساعة التي هي قمن من ظهور العورة فيها، وهي ثلاث ساعات: ساعة قبل صلاة الفجر، وساعة عند نصف النهار، وساعة بعد العشاء الآخرة. وفي التنزيل: ثلاث عورات لكم؛ أمر الله تعالى الولدان والخدم أن لا يدخلوا في هذه الساعات إلا بتسليم منهم واستئذان.

والعورة –ج: كل مكمن للستر. وعورة الرجل والمرأة: سوأتهما، والجمع عورات، بالتسكين، والنساء عورة؛ قال الجوهري: إنما يحرك الثاني من فعلة في جمع الأسماء إذا لم يكن باء أو واوا، وقرأ بعضهم: عوَرات النساء، بالتحريك. وفي الحديث:المرأة عورة؛ جعلها نفسها عورة لأنها إذا ظهرت يستحيا منها كما يستحيا من العورة إذا ظهرت.[16]

ومن خلال ما سبق يمكن أن نستخلص معاني الفضاء الذهني للعورة في القرآن الكريم من خلال الخطاطة التالية:

خلاصة:

نستنتج أن العورة عامة مفهوم واسع= معنى+ رمز

كل ما يجب ستره(البدن)/ ويخشى عليه(البيوت/مال/أهل) / و لا يجب أن يتعدى(الزمن الخصوصية)

السوأة خاصة = + مادة + مخفاة + عيب + قبح + أثر الخطيئة

1-4 فضاء اللون الأصفر في القرآن الكريم :

قال تعالى ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾[17]

وتسر الناظرين قال وهب بن منبه: "كانت كأن شعاع الشمس يخرج من جلدها، فمعناه تعجب الناظرين، ولهذا قال ابن عباس وغيره: الصفرة تسر النفس، وحض ابن عباس على لباس النعال الصفر، حكاه عنه النقاش، وحكي نهي ابن الزبير ويحي بن أبي كثير عن لباس النعال السود، لأنها تهم[18]"

يعتبر اللون الأصفر ضوئيا لونا فرعيا على اعتبار أن العين لا تدركه إلا عبر لونين آخرين، إلا أنه في الطبيعة وفي مجال الأصباغ يعتبر نقيا ولا يمكن أن ينتج عن أي خلط

وظف القرآن اللون الأصفر إضافة لجذر اللون، أما جذر اللون فجاء في البداية بمعنى النوع والهيئة، وجاء في آخر الآية مقترنا بالأصفر ليحدد بدقة نوع الصفرة التي تتصف بها البقرة، وهي صفرة خالصة لا يخالطها شيء أما الأصفر، فجاء صفة حسية فضائية تمييزية للبقرة، فهي صفراء شديدة الصفرة حتى "قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس "فاقع لونها" شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض"وفي مثل هذا الاستخدام الحسي للأصفر توافق مع سياق القصة، فلا يمكن معرفة البقرة بدقة إلا صفة حسية، كذلك يتوافق التوظيف الحسي للأصفر مع مستوى التفكير لدى الأمم الأولى التي كانت تؤمن بالمحسوس أكثر من المعنوي"[19].

خاتمة :

يتضح أن الفضاءات القرآنية متعددة ومتنوعة وتخلق أفقا يسمح للقارئ، بتصور الأمكنة والأزمنة، والأشياء والألوان وهي عناصر فزيائية نمطية تساعد على تصور الفهم الصحيح لواقع النص القرآني وسياقاته المختلفة، وأحداثه المتسلسلة المترابطة، مما يفضي إلى تكامل بين الصورة السمعية والذهنية ذات الطبيعة المعجزة.

الهوامش:

[1]. لسان العرب، محمد أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت 711هـ)، دار صادر – بيروت، ط3 ، 1414. 158/15

[2]– عبد العالي العامري، المسارات الفضائية في اللغة العربية، ص209.

[3]– نفسه، ص135.

[4]– عبد العالي العامري: بنية المسار في بعض أفعال الحركة الموجهة: توفيق سعد الدين وسهام اليعقوبي: اللسانيات المقارنة، أعمال الندوة الأولى للدكتوراه، مختبر إعداد اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، المغرب، د ط، 2015، ص148.

[5]– بوشعيب راغين، ص 271

[6]– عبد العالي العامري، المسارات الفضائية في اللغة العربية، ص 224 225.

[7]. التأويل بين السميائيات والتفكيكية، أمبيرتو إيكو، تر: سعيد بن كراد، المركز الثقافي العربي، ط2، 2004م ، ص :120

[8]- المصدر نفسه، ص 66

[9]- نص المداخلة الذي ألقي بالندوة المصغرة حول " المناهج الأدبية وفهم النص الديني" بصالون جدل الثقافي التابع لمؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث / الرباط ،20 فبراير 2016م.

[10]- البقرة : 59

[11]- المحرر الوجيز 152/1

[12] - الأحزاب 13

[13] - النور 58

[14]- النور 31

[15] -مختار الصحاح محمد بن أبي بكر الرازي (ت ٦٦٦هـ)، تح، يوسف الشيخ محمد الناشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا،ط5، 1999م,ص 221.

[16] - لسان العرب 616/4-617.

[17] - البقرة 68

[18]المحرر الوجيز 163/1

[19]. دلالة اللون الأصفر في القرآن الكريم، خمقاني فائزة، مجلة الأثر، العدد 23/ دسيمبر 2015 .